

## زيارة العلماء للقدس في ظلّ الاحتلال الفرنجي الصليبي

عصام مصطفى عقلة\*، فوزي خالد الطواهيّة\*

### ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على زيارات العلماء لمدينة القدس في حقبة احتلالها الفرنجي الصليبي، وأسباب تلك الزيارات ودوافعها، وكيفية أدائها، ووسائلها، وموقف العلماء الذين لم يزوروا المدينة آنذاك من العلماء الذين زاروها، وتعرّف إنّ حدث إشكال فقهي بسبب هذا الموضوع، وهل رفض بعض العلماء زيارة القدس وهي محتلة، وموقف السلطة السياسية في بلاد الشام من تلك الزيارات، مع محاولة فهم نتائجها، وكيفية تعامل المصادر العربية الإسلامية معها، وموقفها منها. **الكلمات الدالة:** الفرنجة، الصليبيون، زيارة القدس، العلماء.

### المقدمة

شغلت القدس ومكانتها، وضرورة زيارتها، حيّزاً واسعاً من الفكر الإسلامي<sup>(١)</sup>، وكانت زيارتها تتم في الغالب ضمن رحلة الحج؛ حيث يزورها حجاج المسلمين في المدة التي تسبقُ الحجّ أو التي تليه في أثناء عودتهم، وقد تبدّى حرصهم على هذه المسألة على نحو واضح، خاصة حجاج المشرق الإسلامي الذين كانت ديارهم بعيدة عن الشام. وكانت الطرق كثيراً ما تكون غير آمنة. لذلك كان الحجاج وعلى نحو فردي يستغلون موسم الحج لزيارة القدس<sup>(٢)</sup>.

وتعددت أسباب زيارة القدس وأهدافها ووسائلها عبر القرون الهجرية السابقة لغزوها الفرنجي الصليبي سنة ١٠٩٩م/٤٩٢هـ، فكانت دينية من مثل زيارة المسجد الأقصى، أو قبة الصخرة، إضافة إلى المشاهد الأخرى، أو علمية بُغية طلب الحديث والفقهاء من علمائها، أو تجارية، غير أن التركيز على تلك الزيارات لم يكن كبيراً في المصادر الإسلامية؛ وذلك لأن الزيارة كانت أمراً عادياً يؤديه الناس سنوياً. إضافة إلى فقدان التواريخ المقدسية خصوصاً، والشامية عموماً، التي أرخت لتلك القرون، وقد تكون أكثر اهتماماً بموضوعات محلية خاصة، مثل زيارة القدس<sup>(٣)</sup>.

ولما أضحت القدس في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي تحت سلطة الخلافة الفاطمية

\* قسم التاريخ، كلية الآداب، الجامعة الأردنية. تاريخ استلام البحث ٢٥/١٠/٢٠١٧م، وتاريخ قبوله للنشر ٢٣/١١/٢٠١٧م.

(١) انظر حول قداسة مدينة القدس ومكانتها في الإسلام: خليل عثمانة، مكانة القدس الدينية في الإسلام، بحث منشور ضمن كتاب تاريخ مدينة القدس عبر العصور، تحرير محمد عدنان البخيت وحسين القهواتي، الجامعة الأردنية، عمان، ٢٠١٧م، ص ١٤٦-١٦١.

(٢) انظر: سلام أمين النابلسي، المظاهر الحضارية في مدينة القدس في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي (٤٠١-٤٩٢هـ/١٠١٠-١٠٩٨م)، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، ٢٠١٦م، ص ٩٤-٩٥.

(٣) سلام النابلسي، المظاهر الحضارية في مدينة القدس، ص ٣٩، ٦٩-٧١.

الإسماعيلية<sup>(٤)</sup>، التي اتخذت من القاهرة عاصمة لها في سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م<sup>(٥)</sup>، فقد انقطع العلماء عن زيارتها؛ إذ إنّ الفاطميين اتخذوا من إسقاط الخلافة العباسية هدفاً أساسياً لهم، ممّا ربّب صراعاً عنيفاً بين الخلفتين اتّخذ أشكالاً متعددة، لعلّ من أبرزها من الجانب الفاطمي التوسع العسكري على حساب أراضي الخلافة العباسية في مصر وبلاد الشام والحجاز واليمن، إضافة إلى استخدام جهاز الدعوة الإسماعيلية لنشر الفكر الإسماعيلي في المناطق العباسية التي لم تصل إليها الجيوش الفاطمية في محاولة للسيطرة عليها من الداخل، فضلاً عن الدعاية الفاطمية القوية ضد العباسيين، المتمثلة في وصمهم باغتصاب الخلافة من أصحابها الشرعيين؛ آل علي<sup>(٦)</sup>.

اتخذت الخلافة العباسية أمام هذا التوسّع الفاطمي العسكري والدعوي، موقفاً دفاعياً بسبب ضعفها العسكري، فأدارت الصراع دعائياً من خلال وصم الفاطميين بالإلحاد والكفر، وتعطيل شرائع الإسلام، ودفع نسبهم لآل علي، (واتهامهم بالانحدار من نسل ديسان اليهودي)<sup>(٧)</sup> في محاولة منها لتحجيم التوسّع الدعوي والدعائي الفاطمي في أراضيها، وكان لزاماً على الخلافة العباسية لإنجاح دعايتها وزيادة قوتها التحالف مع أعداء الإسماعيلية خصوصاً، والشيعية عموماً، وهم العلماء الذين نظروا بقلق شديد إلى التوسّع الإسماعيلي وخطورته، فتمكّنت الخلافة من ثمّ من عقد تحالف قوي مع الفقهاء الذين شكلوا الأدوات الأساسية في الدعاية العباسية ضد الفاطميين<sup>(٨)</sup>.

ولإنجاح الدعاية العباسية كان لزاماً على الفقهاء والعلماء التركيز على كفر الفاطميين، ودفع نسبهم واتهامهم بتعطيل الإسلام<sup>(٩)</sup>. ولتحقيق هذه الغاية تعاون هؤلاء الفقهاء مع الخلافة العباسية بُغية الحدّ من دخول العلماء والعامّة وطلبة العلم إلى أراضي الخلافة الفاطمية؛ لأنّ في ذلك بيان لكذب الدعاية المضادة للفاطميين من قبل العباسيين؛ حيث إنّ الداخلين سيرون منشآت الفاطميين الدينية من مساجد وغيرها، وإقامة الصلوات؛ ممّا يعني حكماً أنّ ما يدعيه العباسيون من كفر الفاطميين وتعطيلهم الشرائع الإسلامية غير صحيح.

ومن أجل هذا الأمر أضحت زيارة العلماء المشاركة للقدس محدودة جداً، ولعلّ من الأمور التي تعزّز هذه الفكرة احتفال الخلافة الفاطمية في سنة ٤١٤هـ/١٠٢٤م بقافلة الحج المشرقية، التي أُجبرت

(٤) انظر عن قيام الدولة الفاطمية الإسماعيلية ومعتقداتها: فرهاد دفتري، *الإسماعيليون تاريخهم وعقائدهم*، ترجمة سيف الدين قصير، دار الساقى، بيروت، ٢٠١٢م، ص ١٦٩ - ٢٣٩، ٢٥٥ - ٣٠٣.

(٥) سبط ابن الجوزي، *شمس الدين يوسف بن قزؤغلي* (ت ١٢٥٤هـ/١٢٥٦م)، *مرآة الزمان في تواريخ الأعيان*، ج ٢٣، تحقيق إبراهيم الزبيق وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠١٣م، ج ١٧، ص ٤٠٢.

(٦) انظر: فرهاد دفتري، *الإسماعيليون تاريخهم وعقائدهم*، ص ٣١٠ - ٣٢٠.

(٧) انظر محاضر الخلافة العباسية الرسمية في الطعن في أنساب الفاطميين وأديانهم: ابن الجوزي، جمال الدين عبدالرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م)، *المنتظم في تواريخ الملوك والأمم*، ج ١٨، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، ج ١٥، ص ٨٢ - ٨٣؛ سبط ابن الجوزي، *مرآة الزمان*، ج ١٨، ص ١٩٩ - ٢٠٠.

(٨) ابن الجوزي، *المنتظم في تواريخ الأمم*، ج ١٥، ص ٨٣؛ سبط ابن الجوزي، *مرآة الزمان*، ج ١٨، ص ٢٠٠.

(٩) انظر: فرهاد دفتري، *الإسماعيليون في مجتمعات العصر الوسيط الإسلامية*، ترجمة سيف الدين قصير، دار الساقى، بيروت، ٢٠٠٨م، ص ٤٧ - ٥٠.

أمام غارات البدو على التوجه نحو الشام للانطلاق منها إلى العراق، فقدّمت للحجاج الإقامات والأغذية والسكن، وحرصت على دفع نفقات زيارتهم القدس؛ حتى يزول "ما كان يُعرف به أهل هذه الدولة [الفاطمية] المباركة من الكفر وفساد الدّين"<sup>(١٠)</sup>. ويضيف المقرئ في تبيان الآثار السياسية لهذه الزيارة: "فاشئت ما فعله الظاهر على الخليفة القادر بالله، وأنكر عودتهم على الشام، وصرف الأقساسي عما كان إليه وقبضه"<sup>(١١)</sup>.

وعليه، فبمجرد انتهاء سيطرة الفاطميين على القدس في سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م على يد الغز الناوكية ثم السلاجقة<sup>(١٢)</sup>، بدأت زيارة القدس كثيفة نشيطة من قبل العلماء وعوامهم في المشرق والمغرب الإسلامي؛ شوقاً منهم إليها، وبُغية تعرّف مشاهدها، والتزاماً بشد الرحال إلى مسجدها الذي يُعدُّ ثالث المساجد في الإسلام، وجرياً على العادة الإسلامية بتعلّم العلم وتعليمه في المدن الإسلامية المقدسة، وإدراك روايات الحديث على بقايا شيوخها<sup>(١٣)</sup>.

ولهذا السبب شهدت مدينة القدس في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ازدهاراً ثقافياً وكثافة سكانية كبيرة مقارنة بالمدد السابقة، وذلك لسيطرة السلاجقة السنية عليها، وتبعيتهم للخلافة العباسية، مما دفع العديد من العلماء لزيارتها والإقامة فيها، وساعد في ذلك تمهيد السلاجقة الطرق وتأمينها بين أقصى المشرق الإسلامي والأماكن المقدسة في الحجاز والشام، وهو الأمر الذي يفسر كثافة القدس السكانية عند سقوطها بيد الفرنجة الصليبيين في سنة ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م، وكثرة عدد العلماء الفارين أو المقتولين أو المأسورين حينئذ<sup>(١٤)</sup>.

لقد كان لسقوط القدس بيد الصليبيين الفرنجة صدئاً واسعاً في العالم الإسلامي<sup>(١٥)</sup>، وأثار حسرة كبيرة بين العلماء الذين لم يزوروا قبل ذلك، الأمر الذي دفع بعضهم لزيارتها في أثناء احتلالها الصليبي الفرنسي.

(١٠) المسيحي، عز الملك محمد بن عبيد الله (ت ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م)، أخبار مصر، ج ٤٠، تحقيق أيمن فؤاد سيد وتياري بيانكي، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ٢٢-٢٣؛ المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج ٣، تحقيق محمد حلمي، دار إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٧١م، ج ٢، ص ١٣٨. وانظر حول عدم دخول أمير الحج الخراساني إلى بغداد حياءً وخوفاً من الخليفة العباسي لدخوله إلى الشام مما يعني أن منع الزيارة كان سياسياً: ابن الجوزي، المنتظم، ج ١٥، ص ١٥٩، ١٦٤؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ١٨، ص ٣١٠، ٣١٤.

(١١) المقرئ، اتعاظ الحنفاء، ج ٢، ص ١٣٨.

(١٢) انظر حول سيطرة الغز ثم السلاجقة على القدس: عصام عقلة، الناوكية في بلاد الشام، دراسة في التسمية والأصل والعلاقة بالغز العراقية وبالدولة السلجوقية (٤٦٢-٤٧١هـ/ ١٠٦٩-١٠٧٨م)، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، الجامعة الأردنية، عمان، مجلد ٦، عدد ٢، ٢٠١٢م، ص ٤٧-٤٩.

(١٣) انظر حول ذلك: سلام النابلسي، المظاهر الحضارية في مدينة القدس، ص ٨٩-١٠٧.

(١٤) سلام النابلسي، المظاهر الحضارية في مدينة القدس، ص ١٠٦-١٠٧.

(١٥) انظر حول ذلك: ابن القلانسي، حمزة بن أسد (ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م)، تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٣م، ص ٢٢٢؛ ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد (ت ٦٣٠هـ/ ١١٣٢م)، الكامل في التاريخ، ج ١٣، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م، ج ١٠، ص ٢٨٤-٢٨٦.

وقد شهدت بلاد الشام منذ احتلال الصليبيين الفرنجة أجزاء منها اضطراباً سياسياً وعسكرياً، وتفاقماً في حالة الانقسام السياسي والعسكري للقوى الإسلامية، وعدم قدرتها على استعادة قواها في مواجهة الفرنجة الصليبيين، ممّا جعلهم أصحاب القوة الأولى. ونجم عن ذلك مهادنة الحكام المسلمين الفرنجة الصليبيين، واقتصارهم على الدفاع عن حدودهم طوال العقود الستة الأولى من احتلال القدس، من سنة ٤٩٣ - ٥٤٩ هـ / ١٠٩٩ - ١١٥٧ م. ورغم جهود أتاكب دمشق طغتكين (٤٩٧ - ٥٢٢ هـ / ١١٠٣ - ١١٢٨ م)، وعماد الدين زنكي (٥٢٢ - ٥٤١ هـ / ١١٢٨ - ١١٤٦ م) أتاكب الموصل وحلب، فإن جهودهم، وخصوصاً عماد الدين، بقيت بعيدة عن مملكة بيت المقدس الفرنجية الصليبية<sup>(١٦)</sup>، مما جعل إمكانية زيارة القدس محفوفة بالمخاطر الشديدة، وتتطوي على مغامرة كبيرة بالنفس.

إلا أنّ سيطرة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي (٥٤١ - ٥٦٩ هـ / ١١٤٦ - ١١٧٣ م) على دمشق سنة ١١٥٤ هـ / ١١٥٤ م وتوحيدها مع حلب أعاد التوازن للجبهة الإسلامية، وجعل كفة المسلمين هي الراجحة في الصراع مع مملكة القدس الفرنجية الصليبية، وبقيّة الإمارات الفرنجية الصليبية، الأمر الذي جعل اتفاقيات الهدنة مع مملكة القدس مبتغى تلك المملكة، وجعل تلك الهدن تحوي شروطاً لصالح المسلمين تمكن نور الدين من إدخال مجموعة من العلماء إلى القدس تحت حماية ورعاية قادة المملكة<sup>(١٧)</sup>. ولهذا بدأت محاولات العلماء لزيارة القدس في أثناء احتلالها الفرنسي الصليبي، من خلال تأمين نور الدين تلك الزيارات في أثناء الهدن بينه وبين الفرنجة.

#### أنواع الزيارات:

تعددت زيارات العلماء إلى القدس وجوارها، وخصوصاً الخليل؛ للتبرك بمشاهدة مسجدها وقبة الصخرة وقبور الأنبياء. ويمكن تصنيف زيارات العلماء تلك، التي أوردتها المصادر الإسلامية إلى مجموعة من الأنواع حسب طبيعة الزيارة، مع مراعاة قضية أساسية في هذا الموضوع تتمثل في ضرورة ملاحظة فقدان كثير من المصادر المحلية الشامية المعاصرة لهذه الحقبة؛ مما حرمانا معرفة كبيرة بضياعها<sup>(١٨)</sup>، وفقدان جزء مهم من المصادر الشامية الأساسية، مثل النقص في تراجم بعض الحروف من تاريخ دمشق لابن عساكر (ت ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م)، وبغية الطلب في تاريخ حلب لكمال الدين عمر بن أحمد المشهور بابن العديم (ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م) الذي فقد منه أكثر من ثلثيه، وتركز المفقود في الحروف الأساسية، مثل حرف العين، والميم<sup>(١٩)</sup>، مما جعلنا لا نعلم شيئاً عن تلك الأجزاء المفقودة.

(١٦) العظمي، محمد بن علي (ت ٥٥٦ هـ / ١١٦١ م)، تاريخ حلب، تحقيق إبراهيم زعرور، د.ن، دمشق، ١٩٨٤ م، ص ٣٦٢ - ٣٦٥، ٣٨١ - ٣٩٨.

(١٧) ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسين (ت ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م)، تاريخ مدينة دمشق، ج ٨٠، تحقيق محب الدين العمروي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥ م، ج ٣٦، ص ٤١٢.

(١٨) انظر حول المصادر الشامية المفقودة: عصام عقلة، المؤرخ أبو المحاسن يحيى بن علي الشهير بابن زريق (ت ٤٤٢ - ٥٠٩ هـ / ١١٠١ - ١١١٥ م) وكتابه في التاريخ، دراسة في النصوص التاريخية الشامية الأولى المعاصرة للحملة الفرنجية الصليبية الأولى (٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م - ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م)، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، الجامعة الأردنية، عمان، مجلد ٨، عدد ٢، ٢٠١٤ م، ص ٢٨ - ٢٩.

(١٩) انظر: ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م)، بغية الطلب في تاريخ حلب، ج ١٢،

فإذا أضفنا إلى هذين المصدرين ضياع مصنفات معظم زائري القدس في أثناء احتلالها<sup>(٢٠)</sup> التي أوردوا فيها -فيما نظن- معلومات مفيدة عن زياراتهم تلك، فإن هذا الأمر أيضاً أفقدنا معلومات مهمة عن الأزمان الدقيقة (السنوات، والأشهر، والأيام) لتلك الزيارات، والمناطق التي شملتها، ووسائلهم للوصول إلى القدس، وهل كانوا منفردين أم مجموعة من الزائرين، وطبيعة المعاملة الفرنجية الصليبية لهم، وهل دخلوا القدس منتكرين بهيئة فلاحين مسلمين من فلاحي أرياف القدس، أم أعلنوا شخصياتهم ودخلوها بوصفهم زائرين للمقدسات من المناطق الإسلامية، وما موقف سلطات مملكة بيت المقدس الفرنجية الصليبية من تلك الزيارات، وهل سمحت لأولئك العلماء بزيارة المسجد الأقصى وقبة الصخرة ومقام الخليل، وهل سمحت لهم أيضاً بأن يمارسوا شعائرهم الإسلامية من صلاة ودعاء؟ فإن أخذنا في الحسبان أن كتب تراجم الرجال التي حوت معظم تلك الزيارات لا تركز عادةً إلا على زيارات العلماء العلمية لتوثيق رواية الحديث، وهو الأمر الذي لم يتحقق في زيارة القدس تحت الاحتلال الفرنجي الصليبي، وإن أوردوا عنها معلومات فقد جاءت في معظمها مختصرة ومن غير ذكر أي من تفاصيلها؛ وذلك لأنه لم ينجم عن معظم تلك الزيارات رواية علمية لحديث أو تفسير أو غيره من علوم الإسلام. وفي ظل تلك المعوقات يغدو الحديث عن الزيارات مسلماً صعباً، ويرتّب على سالكه التركيز الكبير على استنطاق تلك النصوص القليلة والمبعثرة وتحليلها، بغيّة بناء تصوّر منطقي متماسك عن تلك الزيارات، وخصوصاً أنّ المصادر اللاتينية والسريانية والأرمنية لم تولّ المسلمين في مملكة القدس الفرنجية الصليبية، أو زائريها من المسلمين أي اهتمام في أثناء تدوينها أخبار هذه الحقبة. لقد تعدّدت طرق زيارة القدس؛ لذا يمكننا تقسيمها على النحو الآتي:

#### الزيارات الشخصية:

يُقصد بالزيارات الشخصية تلك التي قام بها أصحابها على نحو مستقل وشخصي، ومن غير تنسيق مع السلطات الرسمية الإسلامية أو ترتيب، وقد تركزت تلك الزيارات في معظمها في المدة السابقة لسيطرة نور الدين محمود على دمشق، وكان الوضع السياسي والعسكري للمناطق الإسلامية حينئذٍ منهاراً. وعليه، فلو أراد أولئك الزائرون تنسيق زياراتهم مع السلطات الإسلامية لما تمكّنت تلك السلطات من تأمين الزيارة أو حماية أصحابها؛ لذلك غامروا بالزيارة من غير أي تنسيق مع أي قوة سياسية في بلاد الشام.

ولعل أول من ذكرت المصادر زيارته القدس على نحو فردي والعالم والمؤرخ والمحدث الكبير والفقير الشافعي أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني الخراساني المروزي (٥٠٦-٥٦٢هـ/ ١١١٢-١١٦٦م)<sup>(٢١)</sup>، وهو أحد كبار حفاظ الإسلام، ومحدث خراسان في عصره، وقد صنّف

تحقيق مهدي الرواضية، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ٢٠١٦م، مقدمة المحقق، ج ١، ص ١٠١-١١٧.

(٢٠) انظر ما سيأتي في الزيارات.

(٢١) انظر ترجمته: ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٣٦، ص ٤٤٧-٤٤٩؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج ١٨، ص ١٧٨-١٧٩؛

سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٢١، ص ١٤٤-١٤٥؛ الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٥٧٤هـ/١٣٧٤م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج ١٦، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠١٠م، ج ١٢،

العديد من المصنّفات تدل على سبعة علمه<sup>(٢٢)</sup>.

وأوردت المصادر التي اعتنت بالترجمة للسمعاني خبر زيارته القدس والخليل في أثناء احتلالهما الفرنسي الصليبي<sup>(٢٣)</sup>، وهي الزيارة الشخصية التي خاطر فيها السمعياني بدخول مناطق الفرنجة الصليبيين متخفياً، فيما يظهر، وهو الأمر الذي تجلّى في وصف الذهبي تلك الزيارة بقوله: "تحيل وخاطر في ذلك"<sup>(٢٤)</sup>.

وركزت المصادر في ذكرها لزيارة السمعياني على إيراد زيارته القدس والخليل فقط، ولم تذكر مناطق أخرى زارها، كما لم تذكر المصادر تاريخ الزيارة أو أية تفاصيل عنها، وخصوصاً كيفية وصوله إلى القدس، وما طريقته ووسيلته إلى ذلك، وكيفية تعامل الفرنجة معه. ولعل أحد كتابيه المفقودين "الإسفار عن الأسفار" و"فرط الغرام إلى ساكني الشام" احتوى على تلك التفاصيل. وبفقدان هذين الكتابين فقدنا تفاصيل مهمة عن زيارته تلك. إلا أنّ السمعياني أشار إلى زيارته هذه في كتبه الباقية، وإن كان ذكره لها إماماً لا تفصيلاً، لبعد موضوعاتها عن موضوع تلك الزيارة، كما يجب التنبيه هنا إلى أن كتابيه التحبير والمعجم لم يصل إلينا كاملين بل وصل من كليهما مختصراً أو منتخباً، وبالتالي فقدنا معرفة أساسية بعدم وصولهما كاملين إلينا. غير أنّ كتبه التي وصلتنا كاملة أو مختصرة تضيف معلومات مهمة عن تلك الزيارة، ولعل أبرز ما تشير إليه عدم كتمان السمعياني زيارته، وإعلانها أمام دوائر العلماء في بلاد الشام والعراق وخراسان، ممّا يعني أنها لم تلق منهم أي استتكار.

ويبين السمعياني أنّ زيارته القدس تحت الاحتلال الفرنسي الصليبي تمت في سنة ٥٣٥هـ/١١٤٠م، ويبدو أنها استغرقت شهراً أو ربما أكثر، لتركيزه في معظم نصوصه على تحديد شهر ذي القعدة تاريخاً لبداية رحلته، ودخوله أكثر من منطقة في فلسطين في ذلك الشهر، وأنه لم يكن وحيداً فيها، حيث ذكر مصاحبة رفيقه الخراساني محمد بن أحمد بن أبي بكر الخوجّاني الصوفي (ت ٥٤٢هـ/١١٤٧م) نزول بغداد، وإمام رباط إسماعيل بن أبي سعد أبرز أربطة الصوفية في بغداد، وقد وصفه السمعياني بقوله: "كان رفيقي في سفرة الشام، وخرجنا صحبة إلى زيارة القدس، وما افترقنا إلى أن رجعنا إلى العراق،

ص ٢٧٤-٢٧٦؛ سير أعلام النبلاء، ج ٢٤، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦م، ج ٢٠، ص ٤٥٦ وما بعدها؛ الصفي، صلاح الدين خليل بن أبيك (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، الوافي بالوفيات، ج ٣٠، تحقيق أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٩٧م، ج ١٩، ص ٦٠-٦٣؛ السبكي، عبد الوهاب بن علي (ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م)، طبقات الشافعية الكبرى، ج ١٠، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٠م، ج ٧، ص ١٨٠-١٨٥.

(٢٢) لعلّ من أهمّها: ذيل تاريخ بغداد، وهو في عداد المفقود، وكتاب التحبير في المعجم الكبير، وهو مطبوع، ومعجم الشيوخ، وكتاب الإسفار عن الأسفار، الذي يُحتمل أن يكون السمعياني قد ذكر فيه أخبار رحلاته إلى الآفاق، ومنها القدس ونواحيها، غير أنّ الكتاب في عداد المفقود اليوم، وكتاب الأنساب، وهو مطبوع، وكتاب فرط الغرام إلى ساكني الشام، وربما تضمن هذا الكتاب أيضاً بعض أخبار زيارته للشام، ومنها زيارته للقدس، وهو في عداد المفقود الآن، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ١٢، ص ٢٧٥-٢٧٦؛ سير أعلام النبلاء، ج ٢٠، ص ٤٥٧؛ الصفي، الوافي بالوفيات، ج ١٩، ص ٦١.

(٢٣) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ١١، ص ٨١١؛ سير أعلام النبلاء، ج ٢٠، ص ٤٥٩-٤٦٠؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج ٧، ص ١٨١.

(٢٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢٠، ص ٤٦٠.

وكان نِعْمَ الرفيق، شيخًا صالحًا، قِيمًا بكتاب الله، دائم البكاء، كثير الحزن، جاور بمكة مدة<sup>(٢٥)</sup>. وشارك السمعاني في تلك الزيارة أيضًا المُحدّث المقدسي الأصل، الدمشقي الدار أبو محمد فضائل بن رضوان بن الحسن (ت بعد ٥٤٠هـ/١٤٥٠م)، وهو مُحدّث أصله من القدس، وغادرت أسرته القدس بعد سقوطها بيد الفرنجة الصليبيين لتستقر في دمشق، وهو مولود في القدس سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٤م، وأقام فيها مدة قبل احتلالها، وكان والده ينتقل بين القدس ودمشق، وله منزل في دمشق. وكان فضائل ينتقل أحيانًا مع والده بينهما<sup>(٢٦)</sup>، مما جعله خبيرًا بالطرق من دمشق إلى القدس، وخبيرًا بالمشاهد والأماكن المقدسة في فلسطين والسواحل الشامية. لذلك كانت مرافقة فضائل للسمعاني والخوجاني في زيارتهما القدس ضرورية لخبرته في الطرق، ومعرفته بالمشاهد وبمعالم المدينة المقدسة، إضافة إلى معرفته -في ما يبدو- ببعض سكان أرياف القدس، الذين يجب أن يقدموا لهم المساعدة لتسهيل دخولهم إلى القدس بوصفهم فلاحين من أرياف القدس. وقد وصف السمعاني فضائل بقوله: "شيخ صالح، سديد السيرة، جميل الأمر، وكان ممن يحفظ الأشعار، صحبنا من دمشق إلى بيت المقدس ومشهد الخليل صلوات الله عليه، ورجع معنا إلى دمشق، وكتبت عنه ببلاد السواحل والأرض المقدسة، وكان ذلك في ذي القعدة سنة ٥٣٥هـ"<sup>(٢٧)</sup>.

ولم نجد في المصادر أو في كتب السمعاني معلوماتٍ عن أي شخصيات أخرى شاركت السمعاني في زيارته القدس، وربما يكون هنالك شخصيات أخرى في تلك الزيارة لم تذكرها المصادر. وقد تحرّكت ودخلت السمعاني من دمشق باتجاه القدس؛ حيث مرّت على طبرية، وباتت بها ليلةً، ودخلت حمامها<sup>(٢٨)</sup>، وزارت أيضًا في طريقهم للقدس قرية حطين، التي قال السمعاني عنها: "دخلتها وأقمت بها ساعة، وزرت بها قبر شعيب صلوات الله عليه"<sup>(٢٩)</sup>. وكان خادم القبر والواردين إليه الشيخ داود بن إبراهيم بن جعفر الأرموي الحطيني<sup>(٣٠)</sup>، الذي قدم للسمعاني ورفقته العسل الكثير مع الخبز واللبن، مما يشير إلى محافظة المسلمين تحت الحكم الفرنجي الصليبي على كرمهم المرتبط بتقديم الطعام للفقراء من زائري المشاهد، أو من المستقرين قربها، أو ربما الحفاظ على أوقاف تلك المشاهد،

(٢٥) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ١١، ص ٨١١، نقلًا عن السمعاني.

(٢٦) السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي (ت ٥٦٢هـ/١١٦٦م)، التحبير في المعجم الكبير، ج ٢، تحقيق منيرة ناجي سالم، دار الأوقاف، بغداد، ١٩٧٥م، ج ٢، ص ٣٣-٣٤؛ المنتخب من معجم الشيوخ، ج ٤، تحقيق موفق بن عبدالله بن عبد القادر، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٩٩٦م، ج ٣، ص ١٣٢٩.

(٢٧) السمعاني، التحبير في المعجم الكبير، ج ٢، ص ٣٣؛ المنتخب من معجم الشيوخ، ج ٣، ص ١٣٢٩.

(٢٨) السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي (ت ٥٦٢هـ/١١٦٦م)، الأنساب، ج ٥، تحقيق عبدالله عمر البارودي، دار الجنان، بيروت، ١٩٩٥م، ج ٤، ص ٤٢؛ وانظر: عليان الجالودي، السمعاني مؤرخًا، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، الكويت، الرسالة ٤٦٠، الحولية ٣٧، ٢٠١٦م، ص ٣٥-٣٦، وقد وصف السمعاني الحمام بأنه عجيب ومشهور.

(٢٩) السمعاني، الأنساب، ج ٢، ص ٢٣٥.

(٣٠) استمر داود خادمًا لقبر شعيب عليه السلام، وكان ينتقل بين حطين ودمشق حيث دخلها في عهد نور الدين محمود، وذلك في سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م، وحضر أحد مجالس نور الدين ورواها عنه. انظر: أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م) الروضتين في أخبار الدولتين، ج ٥، تحقيق إبراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧م، ج ١، ص ٦٣.

مما جعل هناك إمكانية لتقديم الأغذية للزائرين<sup>(٣١)</sup>. ثم توجه السمعاني مع أصحابه إلى القدس عبر نابلس، التي بات فيها ليلة، وأكد سيطرة الفرنجة عليها، وعلى الرغم من الاحتلال فإن بها جماعة كثيرة من المسلمين، وبها الجامع ومسجد آخر. ووصفها بأنها من أمهات بلاد فلسطين<sup>(٣٢)</sup>. وبعد ميّت ليلته في نابلس توجه مع أصدقائه إلى القدس، فأقاموا بها يوماً وليلة<sup>(٣٣)</sup>. ولم يذكر السمعاني ولا غيره من المصادر التي ذكرت زيارته معلوماتٍ أخرى عن زيارته للقدس، ولكن إشارة السمعاني إلى "المسجد الأقصى وقبة الصخرة والمواقع الشريفة"<sup>(٣٤)</sup> في القدس تدل على أنه زارها، وهذا أمرٌ حتميٌّ لكونها الهدف الأساسي لزيارته، ولأنه كان حريصاً في ما سبقها من مدن وقرى على زيارة معالمها ومشاهدتها؛ فقد نصّ كما ذكر سابقاً على زيارة قبر شعيب عليه السلام، وزيارة قبر نبي الله إبراهيم عليه السلام. والظاهر أنّ السمعاني زار المسجد الأقصى، وقبة الصخرة، وأدى بهما مع أصدقائه الصلاة والدعاء، وهو أمر يبدو أن الفرنجة سمحوا به في بعض المناسبات لرعاياهم المسلمين من سكان أرياف القدس وفلسطين، وهو ما أكدّه الرحالة يوحنا فورزبورغ (John of Wurzburg) (ق ١٢/هـ ١٢٠٦م) حيث أشار إلى إن العديد من المسلمين كانوا يأتون إلى المسجد الأقصى للصلاة فيه، وأن الفرنجة سمحوا بذلك<sup>(٣٥)</sup>. وهو الأمر الذي تؤكدّه زيارة ربيع المارديني للقدس، التي سنتناولها في الصفحات اللاحقة، وكذلك تصريح أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ/١١٨٨م) أنه في أثناء زيارته المتعددة للقدس كان الفرنجة يسمحون له بدخول المسجد الأقصى، ويسمحون له بالصلاة في مسجد صغير إلى جانب المسجد الأقصى، وكانوا قد حولوه إلى كنيسة، كما أشار إلى سماح الفرنجة له بزيارة قبة الصخرة<sup>(٣٦)</sup>.

وبعد إقامة السمعاني يوماً وليلة في القدس غادرها إلى الخليل لزيارة مشهد نبي الله إبراهيم عليه السلام<sup>(٣٧)</sup>. ولم يورد شيئاً عن زيارته هذه، غير أنها كانت - في ما يبدو - قصيرة، ومحددة الهدف بزيارة المشهد. ثم عاد إلى القدس، حيث بات مع رفقاءه ليلة في قرية بيت خيران إحدى قرى القدس<sup>(٣٨)</sup>، ومراً في أثناء عودته من الخليل أيضاً في قرية لحول؛ حيث زار بها قبر نبي الله يونس بن متى<sup>(٣٩)</sup>. ومنها توجه إلى القدس التي لم يبق بها طويلاً، وسار منها إلى نابلس، التي أكد أنه بات بها ليلة في أثناء عودته<sup>(٤٠)</sup>، ثم توجه إلى بيسان، وأقام بها يوماً، ووصفها بقوله: "وهي بلدة حسنة بها نخل

(٣١) السمعاني، المنتخب من معجم الشيوخ، ج ٢، ص ٧٨٥-٧٨٧؛ عليان الجالودي، السمعاني مؤرخاً، ص ٣٦.

(٣٢) السمعاني، الأنساب، ج ٥، ص ٤٤١.

(٣٣) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣٦٣.

(٣٤) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٣٦٣.

(٣٥) يوحنا فورزبورغ (ق ١٢/هـ ١٢٠٦م)، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ترجمة سعيد البيشاوي، دار الشروق، عمان، ١٩٩٧م، ص ٤٧.

(٣٦) أسامة بن منقذ الشيزري (ت ٥٨٤هـ/١١٨٨م)، الاعتبار، تحقيق قاسم السامرائي، وزارة الثقافة، عمان، ٢٠٠٩م، ص ١٥٣-١٥٤.

(٣٧) السمعاني، الأنساب، ج ٢، ص ٤٢٩.

(٣٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٢٩.

(٣٩) السمعاني، المنتخب من معجم الشيوخ، ج ٢، ص ٩٨٤؛ عليان الجالودي، السمعاني مؤرخاً، ص ٣٦.

(٤٠) السمعاني، الأنساب، ج ٥، ص ٤٤١.



كثير<sup>(٤١)</sup>، ومنها توجه إلى دمشق<sup>(٤٢)</sup> مروراً بالغور الأردني، ومن ثم حوران لأنها الطريق الطبيعي لذهابه ثم عودته<sup>(٤٣)</sup>.

والمتمأمل في كتاب الأنساب للسمعاني يتأكد من أنه زار كثيراً من المناطق الشامية الواقعة تحت الاحتلال الفرنسي الصليبي، ولكنه لم يشر إلى ذلك في معظمها، ولعل من المدن التي زارها اللاذقية، وصور، وصيدا<sup>(٤٤)</sup>، وقيسارية التي صرح أنه دخلها يوم الجمعة وقت الصلاة، ولم يجد بها من المسلمين إلا رجلاً واحداً وأهله<sup>(٤٥)</sup>. وزار -في ما يظهر- الرملة، وعسقلان<sup>(٤٦)</sup>، وعكا التي صرح بأنه أقام بها بعض يوم، ونزل بجامعها الذي استولى عليه الفرنج، وتركوا بعضه للمسلمين<sup>(٤٧)</sup>. وصرح أنّ سبب دخوله إليها هو لغاية الزيارة<sup>(٤٨)</sup>.

والظاهر أن زيارة السمعاني هذه للقدس والخليل وغيرها من المناطق الشامية المحتلة من قبل الفرنجة الصليبيين دفعته للاختلاط بهم، ولذلك أفرد لهم في كتابه الأنساب مادة تحت عنوان "الفرنجي"، حاول بها تحديد نسبهم، وأكد أنه التقى بهم ببيت المقدس وبلاد فلسطين<sup>(٤٩)</sup>. وتعدّ هذه المادة من أقدم ما ورد في هذا النوع من الكتب عن الفرنجة.

وممن زار القدس بصورة فردية الشافعي قطب الدين مسعود بن محمد ابن مسعود النيسابوري (ت ٥٧٨هـ/١١٨٢م) أحد كبار علماء الشافعية، وعلماء الأصول، والنظر، وممن بلغ رتبة الإمامة، وكان رئيس أصحاب الشافعي في بلاد الشام في عصره<sup>(٥٠)</sup>، والظاهر أنه زار القدس ما بين سنة ٥٤١-٥٤٢هـ/١١٤٦-١١٤٧م، وذلك لأنه وصل دمشق من بغداد في سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م، وتوجه منها بعد مدة لم تحدد من الإقامة بها إلى القدس، التي زارها ثم عاد منها إلى دمشق، وانتقل بعدها إلى حلب حيث يحكم نور الدين، وتولى بها التدريس. ثم غادر إلى بلاده نيسابور، وأستقدم مرة أخرى إلى حلب بعد وفاة المحدث الحافظ علي بن سليمان المرادي (ت ٥٤٤هـ/١١٤٩م) للتدريس في مدارسها، وبناء على ذلك يرجح أنه زار القدس في سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م<sup>(٥١)</sup>.

وممن زار القدس أيضاً على نحوٍ فردي الولي المعروف بالكرامات ربيع بن محمود بن هبة الله، أبو

(٤١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٣٠.

(٤٢) السمعاني، التحرير في المعجم الكبير، ج ٢، ص ٣٤؛ المنتخب من معجم الشيوخ، ج ٣، ص ١٣٢٩.

(٤٣) عليان الجالودي، السمعاني مؤرخاً، ص ٣٦-٣٧.

(٤٤) السمعاني، الأنساب، ج ٥، ص ٦٦٣، ج ٤، ص ٦٠، ج ٣، ص ٥٦٤، ٥٧٠؛ عليان الجالودي، السمعاني مؤرخاً، ص ٣٠.

(٤٥) السمعاني، الأنساب، ج ٤، ص ٥٧٥.

(٤٦) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٩١، ج ٤، ص ١٩؛ عليان الجالودي، السمعاني مؤرخاً، ص ٣٦.

(٤٧) السمعاني، الأنساب، ج ٤، ص ٢٢٠.

(٤٨) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٢٥.

(٤٩) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٧٢.

(٥٠) انظر ترجمته: ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٥٨، ص ١٣-١٤.

(٥١) أبو شامة، الروضتين، ج ١، ص ٦١.

الفضل المارديني الحنفي<sup>(٥٢)</sup> (ت ٦٠٢هـ/١٢٠٥م)، الذي زارها، وهي تحت حكم الفرنجة الصليبيين، ويبدو أنه كان وحده في هذه الزيارة. ودخل القدس -في ما يظهر- متكرراً بزّي سكان أرياف القدس، ونزل بها على مجموعة من النصارى من أهل ماردين ممن سكنوها واستقروا بها بعد سقوطها بيد الفرنجة، كان له علاقة بهم ومعرفة قبل هجرتهم إلى القدس، فأمنوا له السكن بينهم، وأمنوا له عملاً يدوياً في الحفر في ما يظهر؛ لتحديد عمله بلفظة "الفاعل"<sup>(٥٣)</sup>.

وتركز عمله اليدوي هذا عند الرهبان؛ لأنهم كانوا يسمحون له بالصلاة عندهم، ولا يمنعونه من تأديتها، وكان المارديني يدخر الزائد من أجره ليدفعه إلى المسؤول الفرنجي عن قبة الصخرة الذي كانت مهمته -التي أشار إليها المارديني، وانفرد عن جميع المصادر بها- تحصيل ضريبة من المسلمين للأسف لم يتم بتسميتها، مقابل السماح لهم بزيارة قبة الصخرة، والصلاة فيها، وهو الأمر الذي يؤكد سماح الفرنجة لمسلمي مملكة بيت المقدس بزيارة الأماكن المقدسة، وكانت قيمة الضريبة قرطاسياً، وهو نوع من أنواع العملة تعادل قيمته ٦٠/١ من الدينار<sup>(٥٤)</sup>. ويبدو أن العلاقة توثقت بين المسؤول الفرنجي وربيع المارديني، لدرجة أنه كان يعفيه أحياناً من الضريبة إذا لم يكن معه مال<sup>(٥٥)</sup>، وهو الأمر الذي يؤكد طول إقامته في مدينة القدس.

وقد انفرد ابن العديم بذكر هذه الزيارة التي قام بها ربيع المارديني للقدس، وكان مصدر المعلومات هو ربيع نفسه، مما يعني أيضاً أن إعلان زيارة القدس لم يكن يدفع صاحبها للتكتم عليها. وبسبب انفرد ابن العديم، وعدم ذكره لزمن الزيارة، لم نستطع تحديد زمنها، ولا الطريق التي سلكها للوصول إلى القدس.

ولعل آخر الذين زاروا القدس على نحوٍ فردي -حسب ما أتاحتها لنا المصادر التي اطلعنا عليها- العالم والسائح أبو الحسن علي بن أبي بكر الهروي الحلبي<sup>(٥٦)</sup> (ت ٦١١هـ/١٢١٤م) الذي وصفه المنذري بقوله: "الشيخ الزاهد السائح"<sup>(٥٧)</sup>. وقد زار الهروي معظم المناطق الشامية الواقعة تحت الاحتلال الفرنجي الصليبي -حسب ما أكد في كتابه الإشارات إلى معرفة الزيارات- فأورد أنه زار: "مدينة حلب

(٥٢) ابن العديم، بغية الطلب، ج ٨، ص ٨٣-٩٨؛ الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ/١٣٧٤م)، ميزان الاعتدال، ج ٧، تحقيق علي معوض، وعادل عبد المقصود، وعبد الفتاح أبو سنة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م، ج ٣، ص ٦٦، وهاجمه الذهبي لادعائه التعمير ولقاء القدماء؛ ابن حجر، أحمد العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، لسان الميزان، ج ٧، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٧١م، ج ٢، ص ٤٤٦-٤٤٨.

(٥٣) ابن العديم، بغية الطلب، ج ٨، ص ٨٦.

(٥٤) أبو شامة، الروضتين، ج ١، ص ٦٣.

(٥٥) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٨٦.

(٥٦) انظر ترجمته: المنذري، زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي (ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، التكملة لوفيات النقلة، ج ٤، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤م، ج ٤، ص ١٣٢-١٣٣؛ ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ/١٢٨٦م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٨، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٩م، ج ٣، ص ٣٤٦-٣٤٧؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ١٣، ص ٣٢٢-٣٢٣؛ سير أعلام النبلاء، ج ٢، ص ٥٦؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٢٠، ص ١٦٣.

(٥٧) المنذري، التكملة لوفيات النقلة، ج ٤، ص ١٣٢.

وأعمالها والبلاد التي تليها، ثم ذكر الشام بأسرها، والساحل بأسره، وبلاد الفرنج، وفلسطين، والأرض المقدسة، وجميع زيارات البيت المقدس ومدينة الخليل عليه السلام<sup>(٥٨)</sup>. وقد صرح الهروي أن زيارته لفلسطين كانت في سنة ١١٧٣م/٥٦٩هـ، وأكد زيارته لأنطاكيا، وانطرسوس، وكلاهما كانتا تحت الاحتلال الفرنجي الصليبي<sup>(٦٠)</sup>، وطبرية، ونابلس، والغور، وحطين، وبيسان، والناصرية، واللد، وعكا، وجبلية، وبيروت<sup>(٦١)</sup>، ثم انتقل منها إلى القدس. وذكر بداية زيارته قبة الصخرة، وأكد أنه دخلها تحت الحكم الفرنجي، وذكر أن تحتها مغارة الأرواح، وقرأ على سقف القبة سورة الكرسي، وأنها مكتوبة بالفص المذهب، وأن القبة الصخرة أربعة أبواب، وأرخ دخوله المدينة في سنة ١١٧٣م/٥٦٩هـ، وأن على باب القبة الشرقي عقداً كتب عليه اسم الخليفة القائم العباسي، وسورة الإخلاص، وكذلك بقية الأبواب. وذكر أن الفرنجة لم يغيروا ذلك، ولكن أضيفت أيقونات مسيحية من مثل صورة السيد المسيح - عليه السلام - المذهبة على باب الرصاص؛ أحد أبواب قبة الصخرة، الذي كان مرصعاً بالجوهر<sup>(٦٢)</sup>.

ثم ذكر الهروي زيارته المسجد الأقصى، وأكد أن محراب عمر بن الخطاب مازال موجوداً، وأن الفرنج لم تغيره<sup>(٦٣)</sup>، ثم ذكر زيارات ظاهر القدس<sup>(٦٤)</sup>. ويبدو من كلامه ووصفه لزيارات القدس أن إقامته فيها كانت طويلة. ووصف إقامته في القدس عند حديثه عن نزول النور في كنيسة القيامة بقوله: "فإنني أقمت بالقدس زماناً على عهد الفرنج إلى أن عرفت كيفية نزوله"<sup>(٦٥)</sup>.

ثم انتقل الهروي من القدس إلى الخليل، وقدم بداية في حديثه عن الخليل رواية عن الشيخ الحافظ السلفي (ت ١١٧٩م/٥٧٦هـ) سمعها منه في سنة ١١٧٣م/٥٧٠هـ يرفعها إلى شخص ذهب عن الهروي اسمه، بسبب ضياع كتبه سنة ١١٩٠م/٥٨٨هـ لوقوعها بيد الفرنجة، يذكر فيها أن ذلك الشخص زار الخليل تحت حكم الفرنجة، وصادق قيّم مغارة الخليل، وتقرب إليه بهدايا قدمها له، وطلب منه النزول إلى المغارة، فوافقه وسمح له بالدخول إليها، وادّعى أنه رأى الخليل عليه السلام، وعليه ثوب أخضر، وإلى جانبه إسحاق ويعقوب عليهما السلام. وهو ما يؤكد قيام زيارات فردية إلى الأماكن المقدسة بفلسطين تحت الاحتلال الفرنجي الصليبي لم توردها المصادر<sup>(٦٦)</sup>.

وباستنتاج كتاب الإشارات نتبين أن الهروي دخل إلى مناطق الفرنجة على نحو مُعلن، وأقام معهم

(٥٨) الهروي، أبو الحسن، علي بن أبي بكر بن علي (ت ١٢١٤هـ/١٢١٤م)، الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق جانين

سروديل - طومين، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٥٣م، ص ٣.

(٥٩) المصدر نفسه، ص ٢٥.

(٦٠) المصدر نفسه، ص ٦-٧.

(٦١) المصدر نفسه، ص ١٧، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢.

(٦٢) المصدر نفسه، ص ٢٤-٢٥.

(٦٣) المصدر نفسه، ص ٢٥-٢٦.

(٦٤) المصدر نفسه، ص ٢٧.

(٦٥) الهروي، الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص ٢٨.

(٦٦) المصدر نفسه، ص ٣٠-٣١.

علاقات وطيدة، بحيث روى عن بعض فرسانهم روايات تتعلق بمشهد الخليل، وأنهم لم يكونوا يمنعون المسلمين من زيارة مقدساتهم في فلسطين.

وتبقى أخيراً زيارة علي بن عبد الواحد بن محمد بن أحمد، أبو الحسن السّاوي العميدي (ت ٥٢٥هـ/١١٣٠م)، الذي انفرد ابن عساكر بخبر زيارته دمشق تمهيداً لزيارة بيت المقدس. وأكد ابن عساكر أنه سمع منه قبل قدومه دمشق وبعده، ممّا يعني أن محاولة الزيارة التي لم تتم -كما يوحى ابن عساكر- كانت بعد سقوط القدس بيد الفرنجة الصليبيين<sup>(٦٧)</sup>. وتعدّ تلك الزيارة غير الناجحة أول محاولة رصدتها المصادر -التي اطلعنا عليها- لزيارة القدس بعد احتلالها. وزيارة إسماعيل بن أحمد بن محمد، أبي البركات بن أبي سعد الصوفي المعروف بشيخ الشيوخ (ت ٥٤١هـ/١١٤٦م)<sup>(٦٨)</sup>، الذي انفرد ابن عساكر بذكر قدومه إلى دمشق لزيارة بيت المقدس، واستقراره في ديرة السمساطي، والظاهر من كلام ابن عساكر أن تلك الزيارة لم تتم، وأنها كانت فردية أعاق تنفيذها انعدام الأمن على الطرق إلى القدس. ويبدو أن هذه المحاولة لزيارة القدس كانت بعد سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م لانتهاج آخر رحلات ابن عساكر العلمية خارج دمشق في تلك السنة وعودته إليها، لأنه يؤكد أنه شاهده في دمشق<sup>(٦٩)</sup>.

وهنا، لا بدّ من التنبيه على أننا لم نتعرض لابن جبير (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م) صاحب الرحلة إلى فلسطين تحت الاحتلال الفرنسي؛ وذلك لعدم زيارته القدس، وهي المركز الأساس القائمة عليه هذه الدراسة. كما أننا لن نتعرض للحديث عن العلماء الذين عاشوا تحت الاحتلال الفرنسي الصليبي، وكانوا يتوجّهون إلى المناطق الإسلامية ثم يعودون إلى المناطق المحتلة من الفرنجة، فيزورون القدس<sup>(٧٠)</sup>، كما لن نتناول بالدراسة العلماء والأدباء الذين زاروا القدس تحت الاحتلال الفرنسي الصليبي ضمن الوفود الرسمية الإسلامية المبعوثة لعقد الهدن أو الصلح مع الفرنجة، ولعل أبرز أولئك العلماء أسامة بن منقذ الكناني الشيزري (ت ٥٨٤هـ/١١٨٨م)، الذي زار المدينة أكثر من مرة ضمن الوفود التي أرسلتها أتابكية دمشق لعقد الهدن مع الفرنجة<sup>(٧١)</sup>.

### زيارات العلماء للقدس بالترتيب مع السلطة السياسية في دمشق:

فدّم مجموعة من العلماء إلى السلطان نور الدين محمود بن زنكي، بعد سيطرته على دمشق سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م طالبين إليه تسهيل مهمّة زيارتهم القدس؛ رغبة منهم في عدم تعريض أنفسهم للتغريب

(٦٧) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٤٣، ص٨١.

(٦٨) انظر ترجمته: ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٨، ص٣٦١-٣٦٢؛ معجم الشيوخ، ج٣، تحقيق وفاء تقي الدين، دار البشائر، دمشق، ٢٠٠٠م، ج١، ص١٦١؛ ابن العديم، بغية الطلب، ج٤، ص١١٤-١١٨؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٠، ص١٦٠؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٩، ص٨٥.

(٦٩) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٨، ص٣٦٢؛ ابن العديم، بغية الطلب، ج٢٤، ص١١٦-١١٧ نقلاً عن ابن عساكر.

(٧٠) أبو شامة، الروضتين، ج١، ص٣٧٨؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج١١، ص٩٥١-٩٥٤؛ ابن طولون الصالحي، محمد (ت ٩٥٢هـ/١٥٤٥م)، القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية، ج٢، تحقيق محمد دهمان، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٨٠م، ج١، ص٦٨ وما بعدها.

(٧١) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص١٠٣، ١٠٣-١٥٤.

والمخاطرة بدخول مناطق الفرنجة على نحوٍ شخصي، فأرادوا من اتصالهم بنور الدين تأمينه وصولهم إلى القدس من خلال قدرته على ضمان حمايتهم بعد تغييره لموازن القوى مع الفرنجة لصالح المسلمين، وخصوصاً أنه اشتهر بالتدين، وحبه العلماء، ورغبته في استقدامهم من مختلف الأمصار للإقامة في دمشق؛ إيماناً منه بدورهم الكبير في تحرير القدس، ورفع سوية المجتمع دينياً وثقافياً<sup>(٧٢)</sup>.

ولم تذكر المصادر قيام العلماء بمثل هذا النوع من الزيارة قبل سيطرة نور الدين على دمشق، وربما يعود الأمر في ذلك إلى عدم قدرة حكام دمشق قبل نور الدين على حماية العلماء الراغبين في زيارة القدس، وضعفهم الشديد أمام مملكة بيت المقدس الفرنجية؛ وذلك لأن دمشق الممر الطبيعي الوحيد الباقي بيد المسلمين في ذلك العصر. ولذلك لم نجد محاولات من قبل العلماء لزيارة القدس بوساطة نور الدين في أثناء حكمه حلب، وقبل سيطرته على دمشق، وبضاف إلى ذلك ابتعاد حكام دمشق قبل نور الدين عن تقريب العلماء واستقدامهم من خارج دمشق<sup>(٧٣)</sup>.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المصادر التي ذكرت مثل هذا النوع من الزيارات، لم تورد أية تفاصيل عنها، لا من حيث وسائل انتقال العلماء إلى القدس، ولا تدابير نور الدين وحمايته، ووسائله للاتصال بمملكة القدس الفرنجية الصليبية لتسهيل عملية الزيارة وحمايتها، وتذليل العقبات أمامها، وإعطاء الإذن بدخول العلماء إلى المسجد الأقصى وقبة الصخرة، كما سكتت المصادر أيضاً عن إيراد تفاصيل زيارة أولئك العلماء، وبيان إن كانوا قد دخلوا الأماكن المقدسة، وأدوا بها الشعائر الدينية من صلاة ودعاء أم لا.

ولعل أولى الزيارات التي تمت من خلال الاتصال بالسلطة في دمشق -حسب ما تتيح المصادر التي اطلعنا عليها- زيارة المُحدث صالح بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل، أبي الخير الكاثي الخوارزمي الصوفي (ت ١٥٥٤هـ/١١٥٩م)، الذي انفرد ابن عساكر بذكر زيارته القدس، ووصفه بقوله: "شاب قدم علينا طالباً العلم، فنزل في دويرة السمساطي، وأقام بها مدة... وقرأ صحيح البخاري، وسمع من جماعته بدمشق... وكان قد سمع بخراسان... [أو] قزوين"<sup>(٧٤)</sup>.

وقد أغفل ابن عساكر تاريخ زيارته القدس، كما أغفل أية تفاصيل أخرى عنها، واقتصر الأمر على قوله: "وزار البيت المقدس"<sup>(٧٥)</sup>. غير أن ترتيب ابن عساكر لأعماله يساعد في تحديد زمن تقريبي للزيارة؛ حيث قال: "وزار البيت المقدس، وخرج غازياً إلى بانياس"<sup>(٧٦)</sup>. فإذا قررنا بداية أنها حدثت في زمن حكم نور الدين لدمشق، فهذا يعني أنها تمت بعد سنة ١٥٤٩هـ/١١٥٤م، وقبل مشاركته في معركة بانياس التي جرت سنة ١٥٥٢هـ/١١٥٧م<sup>(٧٧)</sup>، مما يرجح أنها تمت إما في سنة ١٥٥٠هـ/١١٥٥م أو سنة

(٧٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٥٧، ص ١١٩-١٢٠، ١٢٣؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٥، ص ١٨٤؛ الذهبي،

سير أعلام النبلاء، ج ٢٠، ص ٥٣١؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٢١، ص ٢٠٣-٢٢٢.

(٧٣) انظر عن حكام دمشق من السلاجقة وعلاقتهم بالفرنجة والعلماء: طائف الأزهر، سلاجقة الشام زمن الحروب الصليبية

الأولى (٤٦٣-٤٦٩هـ/١٠٧٠-١١٥٤م)، دار الزهراء، الرياض، ٢٠٠٧م، ص ١٤٥-٢٤٢.

(٧٤) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٢٣، ص ٣٠٠-٣٠١.

(٧٥) المصدر نفسه، ج ٢٣، ص ٣٠٠.

(٧٦) المصدر نفسه، ج ٢٣، ص ٣٠٠.

(٧٧) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص ٥١٩-٥٢٤.

١١٥٦/هـ ١١٥٥م، مما يعني أنها حدثت في بدايات حكم نور الدين لدمشق، وغير هذا الاستنتاج لا يوجد لدينا أي إشارة أخرى للزيارة، ولكن لا بد أنها تضمنت زيارة المسجد الأقصى وقبة الصخرة، الهدف الأساس لكل الزيارات، وكذلك تدل هذه الزيارة على أنّ نور الدين بدأ منذ وقت مبكر من حكمه دمشق بترتيب زيارة العلماء الراغبين بدخول القدس، ضمن دوافعه الأساسية المؤدية في نظره إلى المساهمة في تحرير القدس، كما سنناقشه في الصفحات اللاحقة.

ومن الزيارات أيضاً زيارة سعيد بن سهل بن محمد بن عبدالله، أبي المظفر النيسابوري المعروف بالفلكي (ت ١١٦٥/هـ ١١٦٥م)<sup>(٧٨)</sup> الذي قدّم حلب وأقام بها، ثم توجه إلى دمشق، واستطاع بها كسب ثقة نور الدين الذي أقبل عليه، وأنزله دويبة السميّاطي، ممّا شجع الفلكي على أن يطلب من نور الدين ترتيب أمر زيارة القدس مع مملكة القدس الفرنجية الصليبية، وهو الأمر الذي استجاب له نور الدين، الذي خاطب -في ما نرجح- ملك مملكة بيت المقدس الفرنجية بلدوين الثالث (Baldwin III) (٥٣٨ - ١١٤٢/هـ ١١٦٣ - ١١٦٣م)، وأخذ منه إذنًا بزيارة الفلكي القدس ومسجدها الأقصى وقبة الصخرة، فوافق الملك بلدوين الثالث، فانطلق الفلكي إلى القدس مصحوبًا -في ما نرجح- بأفراد لحمايته حتى يصل القدس؛ حيث أنجز زيارته تلك، ثم عاد إلى دمشق، فتمسك به نور الدين وجعله شيخ رباط السميّاطي، ولم يسمح له بمغادرتها حتى وفاته؛ رغبة منه في الاستفادة من علمه وورعه، وتقواه، وحسن تعامله مع الأموال التي أوكلت له<sup>(٧٩)</sup>.

وصرح ابن عساكر بأن تاريخ قدومه لدمشق كان في سنة ١١٥٨/هـ ١١٥٣م، ممّا يعني أن زيارته القدس تمت في تلك السنة، أو في السنة التالية لها، لأن سبب دخوله إلى دمشق كان زيارة القدس<sup>(٨٠)</sup>. وممن حاولوا زيارة القدس بترتيب مع نور الدين، الصوفي الكبير، والفقيه الشافعي أبو النجيب عبد القاهر بن عبدالله بن محمد السهروردي (ت ١١٦٣/هـ ١١٦٨م)<sup>(٨١)</sup>، أحد مدرسي المدرسة النظامية في بغداد؛ حيث قدم إلى دمشق في سنة ١١٦٣/هـ ١١٥٨م، رفقة الشيخ الصالح محمد بن عبدالله البغدادي الصوفي المعروف بابن البناء<sup>(٨٢)</sup> (ت ١٢١٢/هـ ١٢١٥م)، وكان هدف السهروردي زيارة القدس بواسطة

(٧٨) انظر ترجمته: ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٢١، ص ١٠١ - ١٠٢؛ ابن العديم، بغية الطلب، ج ٩، ص ٥٩٧ - ٦٠٥؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ١٢، ص ١٧٠؛ سير أعلام النبلاء، ج ٢٠، ص ٤٢٢ - ٤٢٣؛ الصفي، الوافي بالوفيات، ج ١٥، ص ٢٢٤.

(٧٩) ابن العديم، بغية الطلب، ج ٩، ص ٥٩٧، ٦٠٤ نقلًا عن ابن النجار في كتابه ذيل تاريخ بغداد، وترجمة الفلكي تقع في المفقود من ذيل ابن النجار، والغريب هنا اقتصار ابن العديم من بين المصادر التي اعتنت بالترجمة للفلكي على التصريح بزيارته للقدس.

(٨٠) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٢١، ص ١٠١.

(٨١) انظر ترجمته: ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٣٦، ص ٤١٢ - ٤١٣؛ ابن الديبني، محمد بن سعيد (ت ٦٣٧/هـ ١٢٣٩م)، ذيل تاريخ مدينة السلام، ج ٥، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٦م، ج ٤، ص ٢٩٦ - ٢٩٩؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ١٢، ص ٣٠١ - ٣٠٢؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٢٠٤؛ ابن كثير، عماد الدين إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٦/هـ ١٣٧٤م)، طبقات الشافعية، ج ٤، تحقيق عبد الحفيظ منصور، دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٤م، ج ٢، ص ٦١٩.

(٨٢) انظر ترجمته وخبر مرافقته للسهروردي: المنذري، التكملة لوفيات النقلة، ج ٢، ص ٣٥٣ - ٣٥٤؛ الذهبي، تاريخ

نور الدين، غير أنّ هذه الزيارة لم تتم، لانتهاء الهدنة المعقودة بين نور الدين ومملكة بيت المقدس<sup>(٨٣)</sup> بعد معركة البقيعة قرب حصن الأكراد، التي هُزم فيها نور الدين<sup>(٨٤)</sup>. الأمر الذي أدى إلى فشل ترتيب تلك الزيارة لإنهاء الهدنة بعد تلك المعركة وما تلاها من معارك بين المسلمين والفرنجة الصليبيين<sup>(٨٥)</sup>. وقد كرم نور الدين السهروردي واحترمه، وقدره، ثم سمح له بالعودة إلى بغداد بعد طلبه ذلك لتعذر زيارة القدس<sup>(٨٦)</sup>.

وآخر من قام بمحاولة زيارة القدس بترتيب مع نور الدين هو الصوفي أبو الرضا عبد الرحيم بن عبد القاهر بن عبدالله السهروردي (ت ٥٦٧هـ/١١٧٢م)، الذي زار دمشق سنة ٥٦٧هـ/١١٧٢م؛ رغبة في زيارة القدس. ويبدو من كلام ابن الديبشي أنّ الزيارة لم تتمّ إمّا لوفاة السهروردي في دمشق بُعيد وصوله دمشق، أو لعدم قدرة نور الدين على ترتيب الزيارة بسبب عدم وجود هدنة مع مملكة القدس الفرنجية الصليبية<sup>(٨٧)</sup>.

والواقع أنّ تلك الزيارات هي التي أتاحت المصادر الاطلاع عليها، ويبدو أنها كانت أكثر من ذلك، ولعل قول أبي شامة نقلاً عن الفقيه والقاضي بنّجير بن أبي الحسن علي بن بنّجير الأشتري (ت ٥٧٩هـ/١١٨٣م)، وهو أحد المعيدين بالمدرسة النظامية<sup>(٨٨)</sup>، والمدرس بالمدرسة الغزالية بدمشق، وأحد نواب القضاء فيها، وصاحب أول سيرة مصنفة لنور الدين: "وبلغنا عن جماعة من الصوفية الذين يعتمد على أقوالهم ممن دخلوا ديار القدس للزيارة حكاية عن الكفار"<sup>(٨٩)</sup>، وهو الأمر الدال على وجود عدد من الصوفية ممن دخلوا القدس وزاروها.

وأما عن حقبة صلاح الدين قبل تحرير القدس، فالمصادر التي اطلعنا عليها لم تسعفنا بأية إشارة في هذا الاتجاه، وربما يعود ذلك إلى انشغال صلاح الدين بالحروب الداخلية بغية توحيد الديار الإسلامية<sup>(٩٠)</sup>، واضطراب أمور مملكة بيت المقدس الصليبية بعد وصول بلدوين الرابع المجنوم إلى السلطة، وكان صغيراً، ومريضاً، مما جعل قبضته على بعض أمرائه ضعيفة، وهو الأمر الذي أدى

الإسلام، ج ١٣، ص ٣٤٩ - ٣٥٠؛ سير أعلام النبلاء، ج ٢٢، ص ٥٨؛ المقرئ، نقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/٤٤١م)، الملقى الكبير، ج ٨، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٢م، ج ٦، ص ١٢٩ - ١٣٠.

(٨٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٣٦، ص ٤١٢؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ١٢، ص ٣٠٢؛ ابن كثير، طبقات الشافعية، ج ٢، ص ٦١٩؛ هاملتون جب، سيرة نور الدين، المنشور ضمن كتاب تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة سعيد البيشاوي، بيت المقدس للنشر والتوزيع، رام الله، ٢٠٠٤م، ص ١٦٩.

(٨٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١١، ص ٢٩٤ - ٢٩٦؛ أبو شامة، الروضتين، ج ١، ص ٣٩٧ - ٣٩٩.

(٨٥) ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٢٩٨ - ٣٠٥؛ أبو شامة، الروضتين، ج ١، ص ٤١٥.

(٨٦) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٣٦، ص ٤١٢.

(٨٧) ابن الديبشي، ذيل تاريخ مدينة السلام، ج ٤، ص ٨٣ - ٨٤.

(٨٨) انظر ترجمته: الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ١٢، ص ٦٢٤ - ٦٢٥؛ سير أعلام النبلاء، ج ٢٠، ص ٢٧٥. وانظر عن تصنيفه لسيرة مختصرة عن نور الدين: أبو شامة، الروضتين، ج ١، ص ٦٣.

(٨٩) أبو شامة، الروضتين، ج ١، ص ٦٣.

(٩٠) انظر حول عملياته العسكرية لتوحيد بلاد الشام ومصر: ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٤١٥ - ٤٢٢، ٤٢٩ - ٤٣١، ٤٧٦ - ٤٧٧، ٤٨٢ - ٤٩٠، ٤٩٣ - ٤٩٩.

إلى قيام أولئك الأمراء بخرق الهدن مع صلاح الدين<sup>(٩١)</sup>، لذلك لم يثق صلاح الدين بالسلطات الرسمية الفرنجية لتنفيذ مشروع نور الدين بإيفاد العلماء لزيارة القدس، أو ربما يعود الأمر لقناعة صلاح الدين بأن الغاية من الزيارة قد تحققت.

### الرافضون زيارة القدس في ظلّ الاحتلال الفرنجي الصليبي:

صممت المصادر الفقهية العائدة إلى حقبة الدراسة التي اطلعنا عليها عن معالجة زيارة القدس في ظلّ الاحتلال الفرنجي الصليبي، سواء بالسماح بالزيارة أو بمنعها<sup>(٩٢)</sup>، ولم نستطع رصد موقف واضح من العلماء حول زيارة القدس في المدة مدار البحث، سوى بعض المواقف العملية التي يفهم منها رفضهم الشخصي لزيارة القدس تحت الاحتلال الفرنجي الصليبي، من غير أن تصدر عنهم أي مواقف مضادة أو منتقدة للعلماء الذين زاروها، ولعل أبرز المواقف في هذا الجانب موقف الفقيه الحنبلي أحمد بن الحسين بن محمد بن أحمد البغدادي المقرئ (ت ٥٨٨هـ / ١١٩٢م)<sup>(٩٣)</sup>، الذي زار دمشق سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥م، واستقر بها لرغبته في زيارة القدس، غير أنه لم يزرها إلا بعد تحريرها<sup>(٩٤)</sup>. وهذا الأمر، مع ربطه بالزيارات السالفة الذكر الشخصية أو التي تمت بالترتيب مع نور الدين، يدل على أن أحمد الحنبلي لو أراد زيارة القدس وهي محتلة لزارها، غير أنه استمر مقيماً في دمشق بنية زيارتها حتى حُررت، ممّا يعني أنه رفض زيارتها في ظلّ الاحتلال الفرنجي الصليبي.

ولا تذكر المصادر -التي اطلعنا عليها- أي موقف لعالم آخر في هذا الصدد سوى ما ذكره الذهبي في إطار تعليقه على زيارة السمعاني للقدس، فقال: "زار القدس والخليل وهما بأيدي الفرنج، تحيّل، وخاطر في ذلك، وما تهيأ ذلك للسلفي ولا لابن عساكر"<sup>(٩٥)</sup>.

إنّ المتأمل في هذا التقرير من الذهبي في حق السلفي وابن عساكر ليستغرب بدايةً -وهو المطلع على مجمل سير العلماء المسلمين- كيف يقرّر مثل هذا الأمر، ولا نجد مسوّغاً لمثل هذه القضية سوى رغبة الذهبي في عدم التصريح برفضهم زيارة القدس وهي تحت الاحتلال الفرنجي الصليبي، وإلا فهو

(٩١) انظر أوضاع مملكة القدس الصليبية في عهد بلدوين الرابع: مارشال بلدوين، اضمحلال وسقوط بيت المقدس (١١٧٤-١١٨٩م)، ترجمة سعيد البيشاوي، منشور ضمن كتاب الحروب الصليبية، تحرير سيتون، بيت المقدس للنشر، رام الله، ٢٠٠٤م، ص ٢٥٥-٢٦٦.

(٩٢) انظر حول هذا الموضوع: الكاساني، أبو بكر بن مسعود الحنفي (ت ٥٨٧هـ / ١٩٩١م)، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، ١٠ ج، تحقيق علي معوض وعادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م؛ ابن قدامة المقدسي، عبد الله بن أحمد (ت ٦٢٠هـ / ١٢٢٢م)، المقنع في فقه الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق محمود الأرناؤوط وياسين الخطيب، مكتبة السوادي، جدة، ٢٠٠٠م؛ الرافعي، عبد الكريم بن محمد القزويني الشافعي (ت ٦٢٣هـ / ١٢٢٥م)، المحرر في فقه الإمام الشافعي، ٣ ج، تحقيق نشأت المصري، دار السلام، القاهرة، ٢٠١٣م.

(٩٣) انظر ترجمته: المنذري، التكملة لوفيات النقلة، ج ١، ص ١٨٠؛ ابن العديم، بغية الطلب، ج ٢، ص ١٢٦-١٢٩؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ١٢، ص ٨٥٠؛ سير أعلام النبلاء، ج ٢١، ص ٢٢٨؛ الصفي، الوافي بالوفيات، ج ٦، ص ٣٥٢؛ ابن رجب الحنبلي، عبد الرحمن بن أحمد (ت ٧٩٥هـ / ١٣٩٢م)، ذيل طبقات الحنابلة، ج ٢، تحقيق أسامة حسن وحازم بهجت، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م، ج ١، ص ٣١٦-٣١٧.

(٩٤) ابن العديم، بغية الطلب، ج ٢، ص ١٢٨-١٢٩؛ ابن رجب الحنبلي، ذيل طبقات الحنابلة، ج ١، ص ٣١٧.

(٩٥) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢٠، ص ٤٦٠.



مطلع على زيارة بعض العلماء القدس بترتيب مع نور الدين إن كان التغيير والمخاطرة بالزيارة الشخصية لا يقدم عليها مثل هذين العالمين. وإذا علمنا أنّ علاقة ابن عساكر بنور الدين كانت وثيقة جداً، وكان ابن عساكر حافظ الشام ومُحدثها ومؤرخها، وهو يحظى بدعم نور الدين واحترامه<sup>(٩٦)</sup>، فلو أراد زيارة القدس من خلال نور الدين لزارها، ولكان نور الدين أحرص على تأمين وصول ابن عساكر إلى القدس وعودته منها، من حرصه على تأمين غيره، وما ينطبق على ابن عساكر ينطبق على الحافظ السلفي الذي يُعدّ حافظ وقته، وعلاقته بنور الدين جيدة<sup>(٩٧)</sup>، ولهذا فإننا لا نجد تسويغاً لعدم زيارتهما القدس سوى عدم رغبتهما في زيارتها تحت الاحتلال، لأنهما -وحسب ما تقدم- قادران لو أرادا على ترتيب زيارتهما من خلال نور الدين، على الأقل.

### موقف السلطة السياسية من زيارة العلماء للقدس في ظلّ الاحتلال الفرنسي الصليبي:

لم نستطع رصد أي موقف من الخلافة العباسية الراعية للإسلام عمومًا، والإسلام السني خصوصًا، تجاه زيارة العلماء القدس وهي تحت الاحتلال لا سياسيًا ولا دينيًا، بعكس موقفها السياسي الرفض لزيارة القدس إبّان السيطرة الفاطمية عليها.

إن عدم رصد موقف واضح للخلافة العباسية تجاه الزيارة يدل على أنّ هذه المسألة لم تمنعها الخلافة، وإذا دققنا في سير العلماء الذين زاروا القدس، سواء على نحوٍ شخصي أو بالترتيب مع نور الدين نجد أنهم ارتبطوا بالخلافة العباسية بعلاقات جيدة، وأنّ بعضهم استقر في بغداد مدةً معقولة بعد زيارة بغداد، ثم عادوا إلى مناطقهم الأصلية<sup>(٩٨)</sup>، ممّا يعني أن الخلافة لم تصدر أيّ منع لزيارة القدس، بل ربما أنها كانت راضية، وخصوصًا في مسألة الزيارات المرتبة مع نور الدين، الذي كانت تربطه بالخلافة العباسية علاقة وثيقة، وكان حريصًا على طاعتها، وتنفيذ سياستها، وكان لديه مشروع للتحرير مشترك معها، وعليه، فما كان من الممكن له قبول ترتيب تلك الزيارات لو لم يكن على قناعة بعدم ممانعة الخلافة العباسية لمثلها، إن لم تكن أصلًا بالاتفاق بين نور الدين والخلافة<sup>(٩٩)</sup>.

وقد عمل بعض أولئك العلماء في مؤسسات صوفية (ربط، وخانقاوات) في بغداد، تدار بإشراف

(٩٦) انظر ترجمته وعلاقته بنور الدين: ابن الأثير، عز الدين علي بن محمد (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق عبد القادر طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٣م، ص ١٧٣؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٢١، ص ٢٣٩-٢٤١؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٣٠٩-٣١١؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢٠، ص ٥٥٤-٥٧١؛ تاريخ الإسلام، ج ١٢، ص ٤٩٣-٥٠١.

(٩٧) انظر ترجمته ومكانته: ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٥، ص ٢٠٨-٢١١؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ١٢، ص ٥٧٠-٥٧٨؛ سير أعلام النبلاء، ج ٢١، ص ٥-٣٩؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٢١، ص ٢٧١-٢٧٢.

(٩٨) انظر مثلاً عودة السمعاني بعد زيارته إلى بغداد وإقامته فيها مدة، وكذلك عودة السهروردي إلى بغداد بعد زيارته القدس، واستمراره في الإقامة فيها، والخوجاني الذي بقي بعد زيارته متوليًا لرباط إسماعيل بن أبي سعد في بغداد: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٢١، ص ١٤٤، ١٤٥؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ١١، ص ٨١١.

(٩٩) انظر علاقة نور الدين مع الخلافة: مضر طلفاح، اعتراف الخلافة العباسية بقيام الدولة الأيوبية في عام ١١٧٣هـ/١١٧٣م، دراسة في علاقة الخلافة بقوى جناحها الغربي في النصف الثاني من القرن ٦هـ/١٢م، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد ٣٢، ع ٢، ٢٠١٧م، ص ٥٢-٥٥؛ حيث بحث فيه علاقة نور الدين بالخلافة العباسية، ودلل على تماهي مشروع نور الدين مع الخلافة العباسية، والعلاقة الوثيقة بينهما.

الخلافة العباسية، فلو كانت الخلافة غير راضية عن زيارتهم لعرقلت توليهم<sup>(١٠٠)</sup>، وربما لما سمحت لهم بالعودة إلى بغداد.

أما في ما يتعلق بموقف السلطة السياسية في بلاد الشام، فلم نجد أية إشارة تدل على موقف لحكام دمشق قبل نور الدين، وخصوصاً أنّ الزيارات السابقة لحكم نور الدين لدمشق كانت شخصية وفردية. أما موقف نور الدين من تلك الزيارات، فالواضح أنه كان مرحباً بها، ساعياً إلى تحقيقها - كما أسلفنا - وربما يعود هذا الأمر إلى رغبته في ربط العلماء بالقدس، ورغبته في رؤيتهم لها وهي تحت الاحتلال، وغلبة غير المسلمين على المقدسات الإسلامية ضمن خطته الموضوعية لتحشد الرأي العام الإسلامي من حكام وعلماء وعامة لتحرير القدس، وكانت خطته - في ما يظهر - تقوم على أساس عودة العلماء من القدس ليشرحوا للعلماء الآخرين والعامّة ما حلّ بالمدينة المقدّسة، ومقدّساتها الإسلامية من تدنيس، فيزيد بذلك تحشيد الرأي العام للتحرير. إضافة لنقلهم صورة ضعف الفرنجة وخوفهم من قوة نور الدين، وتيقنهم من قرب انتصاره عليهم، وتحرير القدس. ولعل ما يدل على ذلك هو ما نقل على لسان العالم والمعيد في المدرسة النظامية بنّجبر بن أبي الحسن علي بن بنّجبر الأشتري من قوله على لسان الزائرين للقدس عن الفرنجة: "ابن القسيم له مع الله سرٌّ، فإنه ما يظفر علينا بكثرة جنده وعسكره، وإنما يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل، فإنه يصلي بالليل ويرفع يده إلى الله ويدعوه، والله سبحانه وتعالى يستجيب دعاءه ويعطيه سؤلّه، وما يرد يده خائبة، فيظفر علينا. قال فهذا كلام الكفار في حقه"<sup>(١٠١)</sup>.

#### - موقف العلماء المعاصرين واللاحقين من العلماء الزائرين للقدس:

لم تصدر من العلماء السّنة أية مواقف صريحة حول زيارة بعض العلماء للقدس وهي تحت الاحتلال الفرنسي الصليبي، سواء بالقبول أو الرفض، وإن كان أحياناً عدم اتخاذ موقف واضح هو شرعنة لتلك الزيارات أو على الأقل عدم ممانعتهم لها. فكيف إذا رافق هذا الأمر مدح أولئك العلماء بما يستحقونه من علم وصدق وأمانة، وإذا وُجّه إلى أحدهم نقد، فكان ينتقد لا للزيارة، وإنما لقضايا مرتبطة بالجرح والتعديل، مما يفيد عدم ممانعتهم تلك الزيارات، وأن حدوثها لم يؤثر في نظرهم إلى أولئك العلماء الذين زاروها، ويكفي للدلالة هنا رأي ابن عساكر بالمُحدّث السمعاني أحد زائري القدس حيث قدّم ترجمته بوصفه: "الفقيه الشافعي الحافظ الواعظ الخطيب"<sup>(١٠٢)</sup>، ثم قال: "وكان متصوّناً، عفيفاً، حسن الأخلاق"<sup>(١٠٣)</sup>. ثم أكد أنه سمع منه مروياته وأسمعه ابن عساكر مروياته، وكتب كل منهما عن الآخر، ثم أكد استمرار العلاقة بينهما، والتواصل العلمي حتى أواخر حياته<sup>(١٠٤)</sup>.

وكذلك موقف ابن عساكر من الكاظمي؛ حيث ذكر كثرة صومه، وأنه علق (دَوَّنَ) عنه شيئاً يسيراً<sup>(١٠٥)</sup>، ثم ذكر وفاته وأنه شارك في الصلاة عليه، وشارك في دفنه<sup>(١٠٦)</sup>، وهو أمرٌ يتضح منه عدم ترتيب ابن عساكر أي حكم سلبي، أو علاقة سلبية، أو حكم نقدي، بناء على زيارته القدس تحت الاحتلال.

(١٠٠) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ١١، ص ٨١١.

(١٠١) أبو شامة، الروضتين، ج ١، ص ٦٣.

(١٠٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٣٦، ص ٤٤٧.

(١٠٣) المصدر نفسه، ج ٣٦، ص ٤٤٧.

(١٠٤) المصدر نفسه، ج ٣٦، ص ٤٤٧ - ٤٤٨.

(١٠٥) المصدر نفسه، ج ٢٣، ص ٣٠٠.

(١٠٦) المصدر نفسه، ج ٢٣، ص ٣٠١.

ووصف ابن عساكر أيضًا العالم الفلكي الذي زار القدس بقوله: "وكان شيخًا مسنًا، ثقة، حسن الاعتقاد، متواضعًا، رحمه الله، كتبت عنه شيئًا يسيرًا"<sup>(١٠٧)</sup>، وأشار إلى إنصافه، وحسن إدارته لما هو موكول إليه من أعمال، وخصوصًا أربطة الصوفية وأوقافهم التي ولاه إياها نور الدين، وتحدث عن تعففه عن الأموال<sup>(١٠٨)</sup> وأنه قام بمجموعة من الأعمال العمرانية في دوبرة السمساطي، فجدد الصفة الغربية بها، والبركة التي تقابلها، وجدد قناتها من ماله، وهي كلها أوصاف تؤكد عدم ممانعته من زيارة القدس. إن موقف ابن عساكر من العلماء زائري القدس يؤكد أنه عدّها نشاطًا أو اجتهادًا سياسيًا للعالم يسع به الخلاف مع احترام رأي غيره، وأن الزيارة لم تناقش لكونها قضية دينية مباحة أو ممنوعة، وعلى الحكم فيها يبنى الحكم على فاعلها نقدًا وتجريحًا، أو تعديلًا وتوثيقًا، ولهذا السبب لم يصدر عن ابن عساكر أي نقد لأولئك العلماء.

وكذلك وصفه للعالم قطب الدين النيسابوري بقوله: "وكان حسن الأخلاق، كريم العشرة، متوددًا إلى الناس، متواضعًا، قليل التصنع، مات رحمه الله..."<sup>(١٠٩)</sup>.

ويجب هنا التأكيد على ما رواه الهروي عن السلفي من زيارة رجل للخليل تحت الاحتلال<sup>(١١٠)</sup>، وهي الرواية التي تشير إلى أن السلفي لم يتخذ موقفًا تجاه الزائرين للقدس والخليل تحت الاحتلال الفرنجي الصليبي وإلا لما حدث الهروي العائد من زيارته عن زيارة تمت قبله للخليل.

ويعدّ ما أبداه المنذري في كتابه التكملة حول الشخصيات التي ترجم لها<sup>(١١١)</sup> تكرارًا لموقف ابن عساكر، وهو ما ذهب إليه ووافق عليه الحافظ الذهبي في تراجمه للعلماء الذين زاروا القدس، ولعل أول موقف يدل على رأيه هذا هو وصفه السمعاني بقوله: "الإمام الحافظ الكبير الأوحى الثقة، محدث خراسان"<sup>(١١٢)</sup>، ثم نقل وصف ابن النجار (ت ٦٤٣هـ/١٢٤٥م) له بقوله: "كان... ظريفًا، حافظًا، واسع الرحلة، ثقة صدوقًا دينيًا، سمع منه مشايخه وأقرانه"<sup>(١١٣)</sup>. وهو الموقف عينه الذي اتخذه الشافعي السبكي؛ حيث أثنى عليه، ووصفه بمحدث المشرق، والحافظ، وقرظ أخلاقه، وأشاد بمصنفاته<sup>(١١٤)</sup>، وهي مواقف تؤكد أنّ أولئك العلماء نظروا إلى مسألة الزيارة على أنها رأي سياسي لا يترتب عليها أي نقد لأولئك العلماء. ويجب التأكيد هنا أن ما قدمناه من آراء العلماء هو نموذج لآراء لا حصر لها. ويكفي أن نؤكد أننا لم نجد -في ما اطلعنا عليه من مصادر- أي رأي لمؤرخ، أو لمحدث، أو لفقهاء، أو لمفسرٍ سنّي مشرقي، وجّه أيّ نقد لزيارة أولئك العلماء إلى القدس وهي تحت الاحتلال الفرنجي

(١٠٧) المصدر نفسه، ج ٢١، ص ١٠١.

(١٠٨) المصدر نفسه، ج ٢١، ص ١٠١.

(١٠٩) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٥٨، ص ١٤.

(١١٠) الهروي، الإشارات إلى معرفة الزيارات، ص ٢٨.

(١١١) المنذري، التكملة لوفيات النقلة، ج ٢، ص ٣٥٤، ج ٤، ص ١٣٢-١٣٣.

(١١٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢٠، ص ٤٥٦.

(١١٣) المصدر نفسه، ج ٢٠، ص ٤٦٢. ويجدر التنويه هنا إلى أن ترجمة السمعاني تقع ضمن الضائع من كتاب ذيل تاريخ

بغداد لابن النجار.

(١١٤) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج ٧، ص ١٨٠، ١٨١، ١٨٢.

الصليبي، وهذا يُعدّ في ذاته موقفاً غير ممانع للزيارة، أو معارض لها، وإن نقرّ أيضاً أننا لم نجد موقفاً صريحاً يؤيدها في تلك المصادر سوى ما قدمناه من عدم انتقاد يُستنتج منه عدم الممانعة، كما أن العلماء الذين زاروا القدس لو نظروا إلى الزيارة نظرة شك، سواء من الناحية الدينية أو السياسية، لما أقدموا عليها.

ولعل أهم موقف عملي يدل على عدم ترتيب العلماء مواقف تجاه الزائرين للقدس ما نقله أبو شامة عن انقسام العلماء بعد وفاة المرادي<sup>(١١٥)</sup> سنة ١١٤٦/٥٤٤م. وانقسامهم إلى جماعتين عربٍ وأكراد، رغبت المجموعة الأولى ميلاً منها للمذهب ترشيح الشيخ شرف الدين ابن أبي عسرون<sup>(١١٦)</sup> (ت ٥٨٥/١١٨٩م)، وأرادت الثانية ميلاً منها لعلم النظر والخلاف ترشيح القطب النيسابوري، فوُجعت الفتنة بين الفقهاء بسبب ذلك، فسمع نور الدين بذلك، فقال: نحن نرضي الطائفتين. وولّى كل منهما مدرسة من مدارس حلب<sup>(١١٧)</sup>، وهو ما يعني أن زيارته لم تغير شيئاً من نظرة الفقهاء أو السلطة السياسية له.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن أولئك العلماء الذين زاروا القدس وهي تحت الاحتلال الفرنسي الصليبي لم يخفوا زيارتهم تلك، بل أعلنوها أمام الدوائر العلمية في مختلف المناطق الإسلامية، وضمنها من وصلت إلينا تصانيفه في كتبهم، مما يؤكد معرفتهم الدقيقة والمعقدة برأي تلك الدوائر بعدم منع الزيارة لمن أراد، ومعرفتهم الأكيدة بعدم صدور فتاوى ضد من يقوم بالزيارة سواء من فقهاء المذاهب الأربعة، أو التابعين للخلافة العباسية أو لسلطنة نور الدين، مما يؤكد ما ذهبنا إليه من ترك مسألة الزيارة لاختيار من يريدونها أو من لا يريدونها من غير منع أو إباحة واضحة.

ويبدو أن موقف العلماء هذا من زيارة القدس جاء مسابراً مع موقف الخلافة العباسية التي لم تتخذ موقفاً معادياً أو معارضاً من فكرة زيارة القدس وهي تحت الاحتلال الفرنسي الصليبي، ومنتاهياً أيضاً مع موافقة السلطان نور الدين حاكم الشام الذي وصفته المصادر بأنه الحاكم الأكثر تديناً منذ الخلفاء الراشدين، والمجاهد الكبير<sup>(١١٨)</sup>، على تلك الزيارات، بل ومساعدته في إتمامها، وهو صاحب السلطة الشرعية المدعّمة بتأييد الخلافة العباسية وتفويضها، وبمشروعية الجهاد والتحرير، وتحقيق الوحدة الإسلامية، فكان لزاماً على العلماء التوافق مع تلك المواقف الصادرة عن سلطة الخلافة وسلطة الشام السياسية.

### أسباب زيارة القدس في ظلّ الاحتلال الفرنسي الصليبي:

كان الهدف الأساس من زيارة القدس وهي تحت الاحتلال الفرنسي الصليبي زيارة مسجدها الأقصى أحد المساجد الثلاثة التي لا تشد الرحال إلا إليها<sup>(١١٩)</sup>، وقبة الصخرة، والأرض المباركة كما ورد في

(١١٥) انظر ترجمته: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢٠، ص ١٨٧؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج ٧، ص ٢٢٤.

(١١٦) انظر ترجمته: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢٠، ص ١٢٦-١٢٩.

(١١٧) أبو شامة، الروضتين، ج ١، ص ٦١.

(١١٨) انظر حول ذلك: ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٥٧، ص ١١٦-١١٧؛ ابن الأثير، الباهر، ص ٣٣.

(١١٩) ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت ٨٥٢/٤٤٨م)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١٤، تحقيق عبد

العزیز بن بازو ومحمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة السلفية، الرياض، د.ت، ج ٣، ص ٦١-٦٨، ٧٠-٧١.

سورة الإسراء، إضافة إلى زيارة مشهد الخليل، ومشاهد بقية الأنبياء الموجودة في فلسطين، وهي الغايات الأساسية لزيارة القدس عبر القرون الإسلامية المختلفة، الذي كان يعدّ الدافع الأساس وراء جميع الزيارات، ولعل ما يعضد هذا الأمر في رأي العلماء المعاصرين لزمان الحروب الفرنجية الصليبية ما قاله القاضي محيي الدين بن زكي الدين (ت ٥٩٨هـ / ١٢٠٢م) في أول خطبة جمعة بعد تحرير القدس من المسجد الأقصى: "فهو [المسجد الأقصى] موطن أبيكم إبراهيم، ومعراج نبيكم محمد عليه السلام، وقبلتكم التي كنتم تصلون إليها في ابتداء الإسلام، وهو مقر الأنبياء، ومقصد الأولياء ... ومهبط الوحي ... وهو في أرض المحشر وصعيد المنشر، وهو في الأرض المقدسة ... وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملائكة المقربين ... وهو أولى القبلتين، وثالث المسجدين ... لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه"<sup>(١٢٠)</sup>. ويمكن إضافة عامل جانبي مرتبط بالرحلة وطلب العلم عند المسلمين، فكان السمعاني مثلاً، إلى جانب دافعه الأول المرتبط بقداسة المدينة، حريصاً على السماع على العلماء في أثناء زيارة القدس؛ حيث صرح بسماعه مرويات فضائل بن رضوان المقدسي الذي التقاه بدمشق ورافقه لزيارة المدينة، وقال في ترجمته: "وكتبت عنه ببلاد السواحل والأرض المقدسة"<sup>(١٢١)</sup>، وكذلك سمع من باريق ابن جواب الجذامي أحد سكان قرية إبريز إحدى قرى نابلس؛ حيث قال: "كتبت عنه قطعيتين من الشعر"<sup>(١٢٢)</sup>، وهو الأمر الذي فعله في حطين<sup>(١٢٣)</sup>.

ونرجح أخيراً الدافع السياسي كههدف إضافي لبعض الزيارات، وهو الأمر الذي ذهبنا إليه في تحليل وتفسير موقف نور الدين من تسهيل زيارة القدس برغبته في زيارة العلماء لها ومشاهدة احتلالها وتدنيس مقدساتها الإسلامية، ووضع الأيقونات المسيحية في مناطقها المقدسة، مما سيدفعهم لنقل هذه الصورة للمسلمين من حكام وعلماء وعامة، وإثارة حماسهم من ثمّ لتحريرها، وتخليص مقدساتها، وهو الأمر الذي يدخل ضمن أسس مشروع نور الدين لتحرير القدس.

### الخاتمة:

وأخيراً، يمكننا أن نستخلص مما سبق:

- أن زيارة القدس رغم وجاهة دوافعها ما كانت لتتم من قبل أولئك العلماء، وبتأييد واضح من السلطة السياسية في دمشق ممثلة بنور الدين، لولا رغبته الواضحة بانعكاس تلك الزيارات إيجاباً على مشروعه لتحرير القدس، فكانت الزيارات تؤدي إلى إعادة الربط الروحي والعملية بين المسلمين في مختلف بلدان العالم الإسلامي آنذاك والقدس، لغاية تحفيز الأمة جمعاء للمشاركة، ولو بالتأييد، في

(١٢٠) أبو شامة، الروضتين، ج٣، ص٣٨٦-٣٨٧. وانظر أيضاً أهمية القدس عند العماد الأصفهاني، محمد بن محمد بن حامد (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م)، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبح، الهيئة العامة لقصور الثقافة، وزارة الثقافة المصرية، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص١٢٢-١٢٣.

(١٢١) السمعاني، التخيير في المعجم الكبير، ج٢، ص٣٣؛ المنتخب من معجم الشيوخ، ج٣، ص١٣٢٩.

(١٢٢) السمعاني، المنتخب من معجم الشيوخ، ج١، ص٥٠١، وقد انفرد السمعاني بذكر باريق، وكذا انفرد بذكر قرية إبريز.

(١٢٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٧٨٦.

مشروع تحرير القدس الذي كان يعدّ له نور الدين. - أدت تلك الزيارات إلى تقديم معلومات للأمة عن وضع القدس، ووصف مقدّساتها، وإذكاء الرغبة بين العامة والدوائر العلمية لتحريرها وزيارتها بعد التحرير، كما قدمت تلك الزيارات، وتقديمهم معرفة جيدة عن جغرافية الأراضي المقدّسة في فلسطين، وعن مساجدها، ومزاراتها، وهي المعرفة التي كادت تنقطع لولا تلك الزيارات.

- حفظت لنا تلك الزيارات معلومات مهمة -ولو كانت على شكل نتفٍ- عن وضع السكان المسلمين في فلسطين في ظل الاحتلال الفرنسي الصليبي لها، ومدى انتشارهم في المدن أو الأرياف، كما حفظت لنا بعض المعلومات عن كيفية تعامل الفرنجة مع المؤسسات الدينية من تحويل بعضها إلى كنائس أو إبقاء لبعضها الآخر لخدمة المسلمين بها، وحفظت لنا أيضًا معلومات، وإن كانت محدودة، عن بعض العلماء المسلمين في فلسطين، ونقلت لنا -ولو على نحو بسيط- جزءًا ممن معارفهم ومروياتهم الذي يدل على استمرار تمسكهم بالثقافة العربية الإسلامية تحت الاحتلال الفرنسي الصليبي.

- شارك في زيارة القدس علماء مختلفون في العلوم والمكانة والاهتمامات، حيث شارك فيها المُحدّث، والفقيه، والرّحالة، والصوفي، وكانت مكانة بعضهم العلمية في أعلى المراتب داخل الدوائر العلمية، ولعل أعلامهم مرتبة علمية كان السمعاني محدّث خراسان الأول في عصره. - لم تعترض الدوائر العلمية الإسلامية في المشرق الإسلامي على زيارة القدس تحت الاحتلال، ولم تصدر فتاوى تمنع ذلك، وهو الأمر الذي ينطبق على مؤسسة الخلافة العباسية. إن عدد الزائرين من العلماء للقدس تحت الاحتلال -حسب ما ذكرت المصادر التي اطلعنا عليها- كان عددًا ضئيلاً مقارنة بعدد العلماء في ذلك الوقت، مما يدل على أن الزيارة لم تكن تشكل ظاهرة ذات ثقل في الدوائر العلمية الإسلامية.

## Scholars Sunni Visits to Jerusalem under the Crusader occupation

IssamOkleh\*, Fawzi Khalid AlTwahya \*

### ABSTRACT

The purpose of this study is to shed light on the visit of the Sunni scholars to the city of Jerusalem under the Crusader occupation, and the reasons for those visits and their motives, how they do it, and meaning of that, and the position of scientists who did not make such visits from the scientists who visited, Some scholars visit Jerusalem under the occupation, and what is the position of the political authority in the Levant of those visits, while trying to understand the results of those visits, and how the Arab Islamic sources deal with the visit, and their attitude towards it.

**KEYWORDS:** Franks, crusaders, visit Jerusalem, scholars.

---

\* History Department, The University of Jordan  
Received on 25/10/2017 and accepted for publication on 23/11/2017.